

الفصل السابع والستون

بيان ما شاهدنا من قرى ومدن وقصبات

فى طريقنا من مصر إلى قلاع دمياط والبرلس وتينه

خرجنا أول الأمر من بولاق ووصلنا بعد ثلاثة أيام فى طريقنا إلى رشيد، فوجدنا قبالة محلة الأمير ترعة عظيمة وهى ترعة البرلس، فوصلنا:

محلة عزبه

وفىها سبعون أو ثمانون بيت كما أن فيها قبراً عالياً دفن فيه الشيخ على الكومى، فتجاوزناها وعلى ضفة الترعة:

عزبة الحج

وتألف من مائة وخمسين قرية، وبالقرب من جامعها مدفن الشيخ قشاشى، فتجاوزناها وفى الترعة سحب السفينة ملاحون من الضفتين فصادفتنا قرى تجاوزناها، وتقدمنا فى طريقنا وكان بحر البرلس على يَمِينِنَا وسُدَّتْ الترعة عند هذه المحلة إلا أنها تجرى فى بقعة أخرى فيها منبث للأرز، فخرجنا من السفينة وركبنا سفناً فى بحيرة البرلس، وعدنا إلى السفينة، وهذه الترعة تجرى عشرون ميلاً إلى جانب بحيرة البرلس، ودخلنا إلى البحيرة وهى عظيمة طولها خمسون ميلاً وعرضها ثمانون ميلاً إلا أنها بحرٌ ضحلٌ وفىها قارب للصيد، وفى نهاية بحيرة البرلس قلعتها ومن البوغاز يدخل إلى بحر واسع، وفى جنوبها فى إقليم الغربية البحر ليس شديد العمق، إنهم قدروا عمقه بقامة إنسان، وفيه علامات حتى لا تسير فيه السفن لأن فى البحر نخيل فتمر السفن بين هذا النخيل، وفيه السمك أنواع مختلفة، وبين بحيرة البرلس والبحر الأبيض رأس صغيرة، ومضيت فى البحيرة تدفعنا ريح تهب من الشمال الغربى إلى الشرق.

أوصاف قلعة البرلس القديمة

وهي بحيرة تقع في إقليم دمياط، وتتبع إدارياً لـك دمياط، تؤدى سبعين كيساناً وللقلعة حاكم وذلك طبقاً لقانون السلطان سليم، وحاكم آخر وهو قاضٍ، ويتحصل له في العام خمسة أكياس وفي ناحية منها سبعون قرية، وفي ناحية أخرى بلدة بلطيم، وقد بنى اسكندر اليونان قلعة البرلس، وفي العام الحادى والعشرين للهجرة، وفي خلافة عمر بن الخطاب كان عمرو بن العاص قائد جيش يتألف من ثمانين ألف رجل، وقد وجد في الفتح صعوبة وشدة، وبينما وقف عاجزاً اقتضت حكمة الله أن يشرف بالإسلام هاموك أوغلى حاكم البرلس.

وبفضل منه تم الفتح للقلعة، وعلى مر الأيام تخربت القلعة من تأثير تلاطم الأمواج بها وفي عام ٩٢٣هـ جدد بناءها السلطان سليم، وهذه القلعة تحرس البحر إنشائها قلعة صغيرة مربعة ومحيطها خمسمائة خطوة، وفي كل ركن من أركانها الأربعة قلعة خربة، وبها باب حديدى يشرف على البحر وفي القلعة ثمانون جندياً، وجامع بناه السلطان سليم ومنارته على باب القلعة وهي منارة صغيرة وتصل رمال البحر إلى القلعة الآن، وهي تغرق من يوم إلى يوم، وقد رأيت مواضع الهدم في سورها وفيها أربعون مدفعاً وعتادها قليل ورئيس طوبجية القلعة من اللاظ، وفي جهاتها القبليّة ثلاثمائة بيت وزاوية، ومقهى ودكان خباز، وليس فيها حمام ولا سوق، إنها أرض رملية تغيب القدم فيها ولكن جوها لطيف إلى أبعد غاية، والناس حولها ينعمون بتنسيم النسيم العليل وبطيخ البرلس مشهور في البلاد بجودته، وفيه نوعٌ يسمى البطيخ الماوى وهو ممتلئ في جوفه بماء الورد، وثمة نوع آخر من هذا البطيخ إذا شرب المريض ملئاً فنجان منه تم الشفاء له من مرضه، ومن يدمنون شرب الخمر يكرهونها وينصرفون عن شربها، ويشربون من مائه، ويخلطون ماء هذا البطيخ بملقعة من العسل ويشربونه شرباً لذة للشاربين، ومن شرب قدحاً من هذا الماء صباح قائلآ آه يا برلس، إنها خمر عجيبة وقد كتب داود الحكيم عن فوائد هذا البطيخ في تذكرته، كما أن سمك البرلس وتمره المخمل مشهور بالجودة إنه على شاطئ الجزيرة، وفي الجانب الشرقى للقلعة وعلى بعد ثلاثمائة

قدم في أرض ذات رمل ست آبار ماؤها عذب فرات، وأهل البرلس قاطبة يُحَضِرُونَ ماء هذه الآبار، وبالقرب من هذه الآبار ضريح الشيخ عيسى بن نجم بن إبراهيم الدسوقي، إلا أن هذا الضريح غاص وسط الرمال وهو يزار ويرفع الزوار الرمال عن هذا الضريح، ولكن لما آلت الولاية في مصر إلى بولاد زاده أمر بنقل جثمانه جميع أهل رشيد ودمياط وسائر القرى والقصبات. وكانوا عدة آلاف كما جاء القاضى والأعيان والأشراف وتجهموا وحملوا جثمانه وشاهد أولاده نقل جثمانه وسط ارتفاع الأصوات بـ «لا إله إلا الله»، وأطلق المريدون البخور مكبرين مهللين مما يذكر أن كفته أبيض طاهر بعد مرور ستمائة وستة وثلاثون عامًا عليه في القبر فأخذ العجب مأخذه من الناس أجمعين، وحمل تابوته إلى مرج مرتفع بالقرب من شاطئ البحيرة حيث دفنوه، والآن بنى له ضريح عظيم وجامع وتكية، وفضلاً عن ذلك فإن للناس فيه عقيدة راسخة فلا يخلو ضريحه ليل نهار من زوار، كما يقام له مولد في شهر شعبان من كل عام ويحتشد فيه مائة ألف إنسان، والله أحمد أن تسرت لى زيارته، وقرأت سورة يس على روحه رحمة الله عليه، وقد نظمنا فيه شعراً، بيد أن هذه الأشعار ضاعت بين أوراقى المتناثرة، ومن أجل زيارة القلعة تسلمنا من صاحبها مائتا قرش وجواداً ومعنا أربعون من الرجال يحملون البنادق، وحملنا مأكولاتنا ومشروباتنا، ومضينا إلى ساحل الجانب الشرقى من بحيرة البرلس، واجتزنا بأرض ذات نخيل وقرى معمورة.

أوصاف قسبة بلطيم

محلة تتألف من بيت معمور في أرض رملية، وهى التزام تتبع إقليم البرلس، ويسمون صاحب البلدة الحاج بلبل، وإنه رجل رفيع الشأن عامر القلب بالإيمان، وفي ناحية البرلس ثلاثة جوامع، وعلى ضفة البحيرة جامع كبير بناه السلطان منصور، ويقال إنه مدفون في ركن من حرم هذا الجامع، ومساحة هذا الجامع مائة وخمسون خطوة وله منارة تحتانية، وهو مبنى على خمسين عموداً، وبها عشرة دكاكين ومقهى، وليس فيها حمام ولا مدارس.

ضرائح قسبة بلطيم

فى جامع الشيخ أبى الفتح قبر دفن فيه هذا الشيخ، وفى ركن من أركان حرم هذا الجامع قبر الشيخ فتح بن عبد العزيز ابن الشيخ عيسى بن نجم، وقد سبق ذكر ذلك والشيخ عيسى وهو قطب عظيم له ما له من المناقب، إنه صاحب كشف وكرامات وطريقته وهى الطريقة البرهانية، وفى الجانب الشرقى لبلطيم وفى قبر صغير على ضفة البحيرة دفن الشيخ حسن الرفاعى، وقد ظهرت له الكرامات، وفى داخل المدينة على ربوة قبر الشيخ محمد العجمى وفى جانب البحيرة قبر الشيخ محمد البهلول، وبالقرب منه قبر الشيخ علام الله، وفى وسط المدينة قبر الشيخ أبو رواح الطويل قطب عظيم إلا أنه كان قصير القامة جداً، وهو مدفون فى قبر صغير بالقرب من الشيخ محمد الخشوعى وقبره يزوره الخواص والعوام وجميع أهل البلد يتناقلون ذكر مناقبه إنه كان قطباً عظيماً له منزلة السرى السقطى وإذا ما شرب المريض بذات الجنب ماء الورد بجانب قبره شفى هذا الشخص بإذن الله رحمة الله عليهم أجمعين، وتجولنا نشاهد ما فى هذه المدينة، وانعطفنا شرقاً وبلغنا شاطئ البحيرة فى ثلاث ساعات ورأينا غابة من نخيل بين البحيرة وبين البحر الأبيض المتوسط، واقتضت حكمة الله أن يكون لمصر تمر البرلس، والنخلة من هذه النخلات سامقة تحمل عشرين عثكولا وتوتى عشرين أقةً من التمر فهى محلة التمر بتمام المعنى.

واجتازنا حتى بلغنا شاطئ البحر الأبيض المتوسط، واتجهنا فى إقليم الغربية فواجهنا صحراء مترامية الأطراف أشبه شىء بمناهة، وتسكنها فى الصيف قبيلة الحدية، أما فى الشتاء فنسكن هذه القبيلة فى تلك الأرض ذات النخيل إنهم قوم لانت عريكتهم وحسنت طباعهم ولو لم يكونوا على هذه الصفة لما استطاع أحد أن يمر فى أرضهم، ورأينا فى البحر سفينتين، تتبادلان قذف المدافع وإطلاق البنادق فأغارت سفينة الكفار على الشاطئ ونزلوا منها ودخلوا على القرية، ووصلت إليهم بخمسين فارس لمعونتهم وشددنا عليهم فتهقروا وقد أمطرونا وإبلاً من الرصاص، والله الحمد أننا لم نصب بأذى فتنفس الصعداء كل من كانوا على شاطئ البحر، وأقاموا المتاريس، ولكن الكفار قذفوا

وأطلقوا علينا مدفعاً فرقتنا، وحاول الكفار أن يحرقوا السفينة إلا أنهم أخفقوا، ثم قدم من الصحراء سبعمائة أو ثمانمائة لنهب السفينة، فحملوا ما فى السفينة وانتشروا بما حملوا فى الجبال ودامت تلك الحال إلى وقت الغروب، وبعد المغرب أثار الكفار القناديل فى سفنهم، وأطلقوا المدافع حتى منتصف الليل، كما أطلقوا بنادقهم، وفى نصف الليل أحرق الكفار السفينة، فحزن كل من فى المحلة لذلك حزناً شديداً، وبعد ذلك تتهقرت صفوف المغيرين، أما الجرحى من المغيرين فقطعت رءوسهم ووضعوا ناهية، وقد هلك المسلمون لذلك وكبروا، ولكن الكفار أطلقوا النار على المسلمين فما أصيب منهم أحد وبعد مطلع الفجر اشتدت الرياح، فبسط الكفار قلوب سفيتهم ونفخوا الأبواق، وعادوا أدراجهم بعد ما خسروا خسائر فادحة وخشينا وأحجمنا عن السير مخافة أن نتعرض لنهب العُربان فبحثنا عنم جاء لنا من دمياط بمدد ولو ثلاثمائة رجل وخمسة وسبعين قارباً صغيراً، ولم تصب هذه القوارب بأى ثقب والله الحمد وقد سر الناس جميعاً بمقدم هذه القوارب، وعبروا عن ذلك بإطلاق المدافع، ومضوا إلى ميناء دمياط، ومضينا إلى دمياط فى حمى من الجند، وعبرنا نهر يمنى وهذا النهر يجرى إلى المحلة الكبرى، إن نهر يمنى هذا نهر كبير مثل نهر النيل وهو يروى مئات المدن، وفى هذه المحلة مصب النيل فى البحر الأبيض وتسير السفن فيه إلى حيث يخترق النيل بالقرب من سمنوط ونصف النيل يخلط ببجيرة البرلس بين البرلس ودمياط، ثم يجرى فى الصحراء من هناك وبعد خمس ساعات وباتجاه دمياط بلدة تسمى:

السنانية

وهى تقع على شاطئ النيل، وبها ثلاثمائة بيت معمور وثلاثة جوامع ومقهى، وكان فيها قلعة على عهد الكفار، وآثار ميادينها ظاهرة، وهى من أوقاف سنان باشا، وفيها أقام دلاور بك قصراً، وجميع أهل دمياط يصطفون فيها. وركبنا سفينة، كما ركب الجند السفن وأطلقنا على أبراج الكفار بنادقنا وسررنا سروراً لا مزيد عليه، وبلغنا الجمرك، ودخلنا دمياط، وكان اليوم عيد الأضحى، وحررنا المحاضر وكتبت رسالة إلى والى مصر إبراهيم باشا.

أوصاف ميناء دمياط القديمة

أكثر المؤرخين الذين وصفوا هذه المدينة، في أحص الأقوال لهم، أنه بعد طوفان نوح بنى هذه المدينة أحد أبناء أشمون بن مصرايم وكان اسمه دمياط، ولذلك سميت هذه المدينة دمياط، ومعنى دمياط بالسريانية قوة وقدرة، أما في التوراة فاسم دمياط أرلش، وأما في الزبور فاسمها الدرديميه والبيطه وفراغه، وفي الإنجيل اسمها الخضرة، وفي العربية كذلك الدرديميه، وفي القبطية دمياط، وبعد الهجرة بثلاثين عامًا، وبينما كان عمرو بن العاص واليًا على مصر، كان الأسود بن مقداد قائد ثلاثين ألف جندي، فضرب الحصار على الملك هاموكى في قلعة دمياط، ودامت الحرب سبعة أشهر بتمامها، إلا أن العرب يشؤوا من فتح القلعة، وكان للملك هاموكى ابن يسمى شيطا رأى النبي ﷺ في المنام، فهب من نومه في التو، فتزل من القلعة فى جوف الليل، ومضى إلى الأسود بن مقداد وأعلن إسلامه، ودله على المواضع التى يمكن الدخول منها إلى القلعة، فمضى إليها معسكر الإسلام ففتحت لهم القلعة بأمر الله - تعالى -، ووضع الملك هاموكى فى الأسر، واعتنق الإسلام أيضًا ابن آخر يسمى كوريجل، وغنم المسلمون كل ما فى القلعة من نفائس، وأصبحت على الدوام مدينة جميلة طاهرة، وأرسلوا من غنائمها إلى عمر بن الخطاب ثلاثمائة صندوق من المال، وبينما كان نور الدين الشهيد خليفة قدم الكفار الأسيان إلى دمياط بألف سفينة واستولوا عليها وسيطروا عليها سبعة أشهر ثم أرسل نور الدين الشهيد وزيره يوسف صلاح الدين على مائة ألف من الجند إلى دمياط وفتح القلعة وأعدم أسرى الكفار جميعًا، ثم عاد إلى دمشق مظفرًا يحمل ما يحمل من غنائم، وفى عام ٩٢١ استولى الفرنجية على دمياط، وكان الظاهر بيبرس خليفة على مصر ففتح القلعة، وأعمل القتل فى الفرنجية، ومن بعده فتحها السلطان سليم الأول، إنها مدينة عظيمة من أقاليم مصر تقع فى الجانب الشرقى من النيل، وهى الآن دار إسلام بيد إياس باشا ويعجز اللسان عن وصفها وهى سنجق لطيف فى إيالة مصر بمثابة الإقطاعية، ويقدم حاكمها إلى ديوان مصر عشرة أكياس فى العام، وائسى عشر كيسًا من الغرامات ورسوم نقل البضائع والأسواق، وفى مينائها

سفيتان حريتان يسافر بهما رئيس القبطان باشا وقد ألحق هذا الإقليم مدة من الزمان بإقليم رشيد، وحينما يغادرها القبطان باشا مسافراً يقوم مقامه فى حكمها مائة رجل، كما أن جمرتها يحكمه حاكم من طرف الوالى وله أجر يومية قدره عشرة قروش، كما يأخذ من كل سفينة قادمة أو غادية قرش واحد ولكل سفينة عشرة قناطير من الحطب ويتحصل من جمرتها فى العام مائتان أو مائتان وخمسون، لأن هذا النخل يتعرض للزيادة والنقصان من عام إلى عام، ولها حاكم شرعى يحصل على ثلاثمائة أقة كراتب شهرياً، واتفق أن نال عشرين أو ثلاثين كيساً، وقد قدمت خمسمائة أقة صدقة فى عدة أحيان، ويحكم المدينة نائبان الأول النائب الخارجى والثانى منوط به قضاء فارسكور، وتحت حكم قاضى دمياط ست عشرة قرية لأن جوانبها الأربعة بحيرة، أما قضاء فارسكور فحواليها قرى، ويتحصل منها فى العام سبعة أكياس ولدمياط شيخ للإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف وقائد الانكشارية، وعزب وأربعة فرق من الشوربية، وكثير من الأعيان والأشراف والعلماء والصلحاء والأئمة والخطباء والمشايخ والسادات والتجار، وهم كثرة، كما أن حفاظ القرآن لا يدخلون تحت حصر ولكن لا مكان لضرائح الجند بها. ويحرس هذه البقعة ثلاثمائة حارس فى كل ليلة إنها مدينة ذات مرفأ فيها الأمن وعلى شاطئ النيل فى الناحية القبلىة هى جانب ربح الشمال إلى جامع المتبولى ألف ومائة خطوة وهو طول هذه المدينة وعرضها ثمانمائة خطوة، وفى بعض الجوانب ستمائة خطوة ولا وجود لسور محيط بالقلعة من جهاتها الأربعة، والحرس يحرسون فى كل ليلة وعلى شاطئ النيل قلعة صلاح الدين الأيوبي وفى طرفها رباط محاط بسور منخفض، ومحيطه مائة خطوة، وداخلها بيوت خربة وداخلها مخازن للذلال، ومفتاحها فى يد صاحب القلعة وفى هذه المدينة حدائق وبيوت جميلة سطحها من الجص ولكن البيوت فى رشيد أجمل منها وبيوت دمياط مبنية بأحجار مختلفة الألوان، وفيها إدارة شيخ البلد وأربعون محلة ومائة وخمسون محراباً، وفى يوم الجمعة تتلى الخطبة، وفيها كذلك مساجد، وفيها جامع الفتحة وهو جامع كبير يستجاب فيه الدعاء، وهذا الجامع كان فى الأصل كنيسة فى قديم الزمان، وطوله تسعون خطوة

وعرضه أربعون خطوة، وفيه اثنان وتسعون عموداً، وستة منهم من حجر الصوماق وكانها من العقيق اليمنى، ولا شبيه لهذه الأعمدة فى البحر كل عمود منها يساوى خزانة مصر، وعلى هذه الأعمدة سقف حديدى مزخرف، وفى أطراف حرمه أربعة وستون عموداً وهى من الرخام الذى يشبه البللور، وفى حرمه سبيل وصهريج مآزه عذب فرات، وماء المطر يجتمع فيه وفى الحرم كذلك شجرة نبق وهى دوحة عظيمة وللجامع أربعة أبواب تطل على الحرم اثنان منها يفضيان إلى القبلة والأخران مفتوحان على الجهة الغربية، ومحراه يقع فى ركن منه، لأن هذا الجامع كان فى الأصل ديراً لليونان ولذلك يسمونه جامع الفتحية محراه قديم الطراز ومنبره من الخشب وعلى باب منبره تاريخ هو آية شريفة هى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ {التوبة: ١٨}، أنشأ هذا الجامع الحاج شمس الدين بن محمد الطرابلسى المعروف فى شهر رجب الفرد سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وله منارة من ثلاث طبقات وهى منارة جميلة، وعلى باب قبلته تاريخ تعميره سنة ١٠٨٣، وقد عمره دأور بك.

وأمام المحكمة فى وسط سوق مزدحم جامع البدرية، وطوله مائة وخمسون خطوة وعرضه خمس وخمسون خطوة، وله سقف يحمله خمسون عموداً من الرخام، وفى وسط حرمه نخلة سامقة، وهى تساوى منارته فى الطول ومنارته من ثلاث طبقات وهى مزخرفة جميلة، وهذا الجامع تحتانى وله أربعة أبواب بابان للقبلة وبابان جانبيين، وفى حرمه حوض ذو صنوبر وعليه لوحة مكتوب فيها، وفى أطرافه صناير كتب على باب منبره: ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ {الصف: ١٣}.

وعلى شاطئ النيل بالقرب من سوق الغلال جامع البحر، وطوله وعرضه مائة وثمانون خطوة، ويعلوه على أربعة وثمانين عموداً سقف ملون مزخرف باللوان مختلفة، وله سبعة أبواب ومنارة من ثلاث طبقات.

وفى سوق الأرز جامع كبير بناه خواجه أمين الدين المعينى، وله قبة عالية ويصعد إليه بسلم حجرى من ثمان درجات، ولا يخلو من المصلين ليل نهار وكأنه جامع السلطان برفوق فى العادلية فى مصر، خالٍ من الأعمدة وعلى جوانبه الأربعة قباب

تشبه طاق كسرى ووسط الجامع مكشوف، مرصوف بالرخام وفى كل ركن من أركانه صفة عظيمة إنه جامع وسيع ومحراه مزين بالأحجار الملونة، ومنبره أيضاً، وجوامع دمياط فيها من جوامع الأقطاب أكثر مما فى رشيد، كما أن فيها كثير من الزوايا.

ومن هذه الزوايا زاوية الأربعين فى السوق، كما يوجد مسجد يسمى مسجد القباني، وقد بنى منذ فتح عمر لمصر، وفى الجانب الأيمن حول هذه الزاوية دفن أربعون من الصحابة وإلى جانب صناديقهم خشب منجور كتب عليه بخط جلى هذا التاريخ: (برسم العبد الفقير إلى الله تعالى القاضى شهاب الدين سنة عشرين وثمانمائة).

وفى هذه المدينة سبع مدارس وإحدى عشرة تكية وثلاثمائة سبيل ومن هذه السبل سبيل رضوان جورباجى، وهو فى الجمرك وقد بنى بالقيشاني، وكواته من النحاس الأصفر، ومشربته مقيدة بالسلاسل، ومشاربه مجلوة ومذهبة ولما كان صاحب هذا السبيل على قيد الحياة كان فى يوم عاشوراء يتصدق على أرواح شهداء كربلاء بالعسل فى ثلاثة أيام وبالسكر فى ثلاثة أيام أخرى، وقد أقيم على هذا السبيل مكتب للصبيان كأنه قصر عظيم وفيه ثلاثمائة صبي يتعلمون القراءة والكتابة، وفى كل سنة يتسلمون راتباً، وعلى كواته تاريخ هو (حبذا هذا السبيل الذى مائه كماء الحياة الذى أقامه إسماعيل رضوان سنة ١٠٨٦).

وفى داخل السبيل كتب تاريخ كذلك على القيشانى، وجاء فيه (بارك الله فى هذا السبيل فثمة ثمانون غيره).

كما يوجد أربعة حمامات وهى التى أقامها رضوان الشورباجى فى السوق، وثمة ثمانية عشر خاناً أولها خان مصطفى شورباجى وخان الحرمين، وخان مصطفى جلى وخان الحويلية وخانان لـ (بيرى جورباجى)، خانان أيضاً للأرناؤط. وخان بن راجح، وخان عنبرى زاده وخانان لتكلى شورباجى، وخان ذو الفقار كتخدا القديم، وخان عباس وخان جمعدى وخان بن فار المسمى صجان أوغلى، وخان طيناوييه، وخان القفاصين، وخان القاضى، وعبد الرحمن باشا حينما كان متولى مصر بنى خاناً على ضفة النيل كأنه القلعة بإذن من كورجى ذو الفقار كتخدا، وقد جلبت جميع الأحجار

التي بنى منها هذا الخان من مصر ولا يوجد في دمياط بناء من حجر ما عدا هذا الخان والجامع الكبير، وله بابان وبه مائة حجرة، كما يوجد اثنان وثلاثون مقهى فيها، أما في السوق فعدد المقاهي ست وهو خان كبير وفي حرمه حوض ذو نافورة، وعلى جانبيه مقاه فيها عازفون ومداحون وراقصون وفي هذه المدينة مائتان وستون شارعًا وكلها شوارع واسعة نظيفة، وفي أطرافها أسواق سلطانية، وبها ألفان من الدكاكين، كما أن بها ثلاثمائة طاحونة تديرها الخيول، كما يوجد بها طواحين للزيت، كما يوجد ستمائة مصنع، كما أن فيها محلة لليهود ومحلة للقط وسبع محلات للكفار، كما يروح الفرنجية والأرمن ويغدون ولا وجود فيها لسفراء الفرنجية كما أن بها سبع كنائس وأربعون حانة وستمائة بيت وبها مائة وأربعون مزرعًا للأرز لأن دمياط أرض الأرز، أما الحبوب التي ترد من الصعيد غالية الثمن وبها ثلاثة آلاف مخزن وبها ثلاثة آلاف صياد يصيدون السمك من دمياط ويصدر السمك المملوح المكبوس والبطارخ من دمياط إلى بلاد الروم وإلى بلاد الفرنجية، لأن هذه المدينة فيها أنواع كثيرة من السمك، وفي إدارة شيخ هذه البلدة آلاف الموظفين وحمدًا لله فليس فيها بيوت للدعارة كما هو الشأن في باب اللوق، كما أن النساء في هذه المدينة لا يخرجن إلى السوق وعندهن أن الخروج للسوق عيب كبير، وفي الليل توضع المصابيح في المنازل، والشرطة في النهار قليلون وأكثر الناس فلاحون، وهم كادحون قادرين على الكسب مقتدرين، والأعيان يلبسون الجوخ والحريز، والفقراء ومتوسطو الحال منهم يلبسون الثياب الملونة، والنساء يضعن على رؤوسهن قلائس من الذهب الأحمر والفضة كما أن النساء يضعن على وجوههن سود البراقع كما ينتعلن نعالًا زرقًا وإذا ما خرجت امرأة إلى الشارع نهارًا قتلت كائنة من كانت، ولكن يؤذن لهن في السعي في جنازة موتاهن من ذوي قريباهن.

إن أهل هذه المدينة أهل ذوق، ويقام حفل زفاف مرة في كل ليلة فيرتفع الضجيج وفي أطراف هذه المدينة الأربعة ستة وستون من البساتين وحدائق رضوان، ونور الليمون والسفرجل كثيف بحيث أن أحدًا لو مر من بينها لتنسم شذاها، وفي كل حديقة حوض وشادروان وحقيقة الأمر أن حدائق رضوان شورباجي وذو الفقار كتخذها كأنها حديقة

إرم، وجو هذه المدينة لطيف للغاية كما أن فتياتها وفتياتها غاية فى الحسن، كما أن أهلها يحبون الغرباء ويكرمون وفادة الضيف، وأهلها يتاجرون فى السمك والأرز والسكر وغير ذلك، ويجرى إلى وسط المدينة خليج عظيم ينشعب من النيل وعلى جانبي المدينة قصور شامخة تطل على الخليج نوافذها، كما أن بعض أصحاب هذه القصور يقفون فى النوافذ ويصيدون السمك كما أنهم يتصدقون على الفقراء كما أن الصبيان فيها يتردون ويسبحون فى هذه التربة، ويتعاقون فى دعاة، وفى هذا الجانب قصور جميلة شامخة متعددة الطبقات، وأثناء فيضان النيل تتدفق مياهه إلى بعض هذه القصور، وبعض المنازل فيها زوارق لمواجهة ذلك ويركبون فيها ليمضون بها إلى حيث يريدون، وترسو هذه الزوارق عند السفينة.

وفى الشمال من هذه المدينة على ربوة مقبرة وبرج مربع وهو برج مرتفع وفى زمان الكفار كانت جزيرة قبرص تبدو منه وإن كانت مشاهدة قبرص تمس الحاجة فيها إلى نظر جد حديد والأرز من أطيب المأكولات فى دمياط، ويورد الأرز من دمياط إلى سلاطين آل عثمان، وأرز المنزلة وفرسكور لا وجود لمثله فى العالم كما تشتهر دمياط بالسمك والبطارخ وإلى جانب ذلك الجميز والخبز الأبيض والحريز الملون والموز. وفى بوغاز دمياط قلعة تشبه قلعة رشيد..

أوصاف قلعة دمياط العتيقة

بناها السلطان سليم الأول حين فتح مصر، وقد فتحها الأسود بن المقداد حينما فتح عمرو بن العاص مصر، ولم يبق أثر لهذه القلعة، وهى الآن مبنى متين تقع عند التقاء النيل بالبحر الأبيض، ومحيطها خمسمائة خطوة، وعلى جوانبها الأربعة بروج، ولها باب يطل على الجنوب، وفيها جامع السلطان سليم، وفيها رئيس من المتفرقة، وطبقاً للقانون، وفيها مخزن للأسلحة ومدافع وأربعون قذيفة، وخارجها فى الجانب الأيمن مدفع، ولا وجود لمثله والله أعلم. وهذا المدفع يقذف قذيفة تزن أربعون أوقية، ولا خندق حول هذه القلعة لأن الأرض حولها منخفضة وهى قريبة من الشاطئ، وسورها

منهدم في كثير من المواضع، وقد ركبنا قارباً ومضينا إلى حيث يلتقى النيل بالبحر، وصليت ركعتين ورفعت إلى الله كف الدعاء، ويقول علماء دمياط إن هذا الموضع هو الذي ذكر في القرآن بـ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ (الرحمن ١٩)، هو الذي التقى فيه موسى - عليه السلام - بالخضر، ولكن ثمة جدال محتدم بين علماء رشيد فيما يتعلق بهذا الشأن، ولكن جاء في تفسير السيوطي أن مرج البحرين المراد بالبحر فيه البحر الأسود، وبحر الخزر هو بحر كيلان، وبعضهم يقول أنه بحر الأبواب، وهو بحر ليس فيه مصب وهو ثلاثة أمثال البحر الأسود وهو بحر عظيم، ومرج البحرين المراد بهذين البحرين: هما البحر الأبيض الذي هو بحر الروم الذي يختلط بالنيل ولذلك يسمى بوغاز دمياط مرج البحرين، وبعضهم يذهب إلى أن بحراً كبيراً قد اختلط بنهر عظيم وهذا ما يسمى مرج البحرين، أما لقاء الخضر بموسى - عليه السلام - فكان على شاطئ النيل، وقد قدم الخضر في سفينة، وفي هذا الشأن وقع الخلاف بين علماء دمياط ورشيد، أما قول علماء دمياط فهو القول الصحيح، وركبت بعد ذلك مع حاكم القلعة قارباً وفى قبالة القلعة الشرقية القلعة الغربية.

أوصاف القلعة الغربية المقابلة للقلعة الشرقية

بناها في عهد السلطان أحمد خان طواشى المتفرقة جعفر أغا حسبة لله، أما قلعة عبد الصمد فهى المشهورة إنها قلعة صغيرة، مستديرة، على شاطئ النيل، ومحيطها مائة خطوة وفيها برج متين، وقد ضمت إليها من بعد قلعة طايبه وهى أيضاً متينة الأركان وفيها خمسون مدفعاً، ولكن المدافع الكبيرة فى هذه القلعة، وهى تطل على البوغاز، ولها رئيسها وخمسون جندياً وعملهم هو صيد السمك والحمام والسَّمَان، وتقع فى أرض رملية ولها باب على الجهة القبلىة، وفيها أربعون أو خمسون حجرة، وليس فيها متزوج وكل من فيها من العزب، وقد زرتها ووجدت أن عشرة من جنودها غير موجودين فسجلت أسماءهم وعرضتها على الباشا ومضيت إلى القلعة الشرقية من القلعة الغربية ودفعت أجرة انتقال عشرة قروش وركبت فى زورق إلى دمياط.

بيان الأولياء الذين عرفناهم في زيارتنا في مقبرة دمياط

عندما بعث الملك هاموك ابنه الشيخ لفتح قلعة دمياط وأسلم على يد الشيخ شطا والأسود بن مقداد، وبعد الفتح أمر الأسود بن مقداد الشيخ شطا بعشرة آلاف جندي وفتح قلعة شوموم وقلعة البرلس وقلعة الدميره وفي العام نفسه حينما كان يفتح قلعة التيه أصيب بجرح وكلمة شطا شطا بمعنى قطعة قطعة ولذلك سمي الشيخ شطا، جاء في رواية أن شطا موضع فيه رمل كثير كثير، وذلك لأنه دفن في أرض ذات رمل وقد مات شهيد حرب، وصعدت روحه الشريفة إلى بارئها، وقد نقل جثمان الأسود بن مقداد إلى دمياط، ودفن في ضريح على شاطئ بحيرة دمياط على مسيرة نصف ساعة من الجانب الشرقي إلى دمياط، ولأنه استشهد في الخامس عشر من شهر شعبان يقيمون له مولداً في هذا اليوم، ويأتي الناس من دمياط والقرى والقصبات الأخرى أربعون أو خمسون ألف رجل ويقيمون في الخيام ويمكثون ثلاثة أيام بلياليها يزورون ضريحه، ويأتي كذلك قائم مقام دمياط وأعيانها لزيارة هذا الضريح ويمكثون في الخيمة ويعد سماء عظيم لمن ينعمون بأطياب الطعام ثلاثة أيام بلياليها، وينفق على ذلك من مال مصر، ويحاسب الوالي على تلك النفقات، وهذا قانون قديم، وضريح الشيخ شطا مربع الشكل وكأنه قلعة ومحيطه ثلاثمائة خطوة.

ويسكن في هذا الضريح إمام ومؤذن وحارس القبور، وبجانب الضريح زاوية، وفي حرمة صهريج، وفي كل عام يحمل الماء من النيل على ظهور الجمال للماء هذا الصهريج بالماء وإذا ما فاض منه الماء أصيبت الجمال بالجرب وإنها لحكمة عجيبة. وأجملة القول أن ثمة ضريحاً عظيماً يزوره الناس خواصهم وعوامهم، وقد دفن فيه الشيخ أبو المداين والشيخ درغام وفي جامع الشيخ متبولي دفن الشيخ متبولي والشيخ سيدي فاتح أبو العطا، وبالقرب من جامع الفتحة ضريح ذى الجناحين، وبالقرب من البوغاز ضريح بين الموجتين، وبالقرب من المنظر بين الفرضين، وفي حديقة في شمال المدينة ضريح للشيخ جمال الدين المولوي وفيه سماع خانه من عدة غرف ومطبخ،

وأرضها كأنها الجنة إنها تكية للقلندرية وفيها المريدون، وجميع أهل دمياط يأتون إلى هذه التكية لينعموا بالأنس والبهجة، وفي ركن من أركان هذه الحديقة قبر لأحد صلحاء خُرَّاسان وهو مستجاب الدعوة وصاحب سجاده وله آلاف العشاق، وبالقرب منه الشيخ سيد فتح الأسمر، وبجواره الشيخ سيد أحمد ابن الشيخ عبد السلام، وهو مدفون في ضريح عال وبالقرب من السيد فتح ضريح الميدان الأخضر، وبالقرب منه مقام الشهداء، وبالقرب من خرط القنطرة رائد طريق الناس الشيخ أبو العباس، وهو قطب عظيم، ومزار صاحب الأديان وهو دار ضيافة للغادين والرائحين، وفي داخل التكية وِيسْمُونُ كل متعلقاته بالأسود وفي زاويته جمع كبير، ولا ند للشيخ جليبي، إنه شيخ صالح عابد زاهد يلبس العمامة السوداء، وجميع المريدين فيها يلبسون السواد ويرفون العلم العباسي الأسود، وبالقرب من الشريف عثمان الشربازي والشيخ عباس والشيخ حسن الطويل وفي جامع قبر الشيخ علي العباسي وبالقرب منه الشيخ سيد محمد النعماني وبجواره الشيخ كرماني وبالقرب منه الشيخ علي السقا وفي شمال جامع المتبولي على شاطئ النيل تكية في حديقة كأنها حديقة إرم، وفي وسطها قبر دفن فيه الشيخ على منييط، وهو قطب عظيم من زاره خمس مرات شفى من مرضه بإذن الله، وعلى شاطئ النيل حدائق كأنها الجنات في داخلها قصور وأحواض، وأشجار يجلس الأصدقاء في ظلها، إنها موضع يزوره أهل دمياط ويتنزهون فيه وبالقرب من هذه الحديقة الشيخ عبد الرحمن زلطي، وبالقرب من مسجد الفتح الشيخ منياوي وبجواره سيد أحمد شناوي، وهو من أقطاب الطريقة البرهانية وبجواره ستي الوالدة التي استشهدت حين الفتح، وهي من النساء الصالحات، ويجتمع عندها حشد من النساء في كل يوم سبت لزيارتها، وبالقرب منها الشيخة ست شامية، وبالقرب منها الشيخ سيد أصيل، وبالجوار منه سيد عبد الله الشريف، وفي سوق اللبن الشيخ خثعم، وفي سوق السمك الشيخ شانه، وبالقرب من حمام رضوان الجورباجي الشيخ الحيشي وفي حارة المنشي الشيخ عمرو أبو العباس، وبالقرب منه الشيخ العصفراتي والحيشي وبالقرب منه الشيخ أبو عصبية وفي غيطان الشعراء سيدى محب الدين يقام له مولد عظيم كل عام.

وفى بلدة المنيا دفن الشيخ إبراهيم أكبر المنياوى، وقرية المنيا بها مائتا بيت وحدائق وبساتين ونخيل، وفى شهر رجب من كل عام يقام له مولد عظيم، وفيه يحتشد خلق كثير، والمريدون من جميع الطرق يقولون لا إله إلا الله ويقومون بالذكر فى الحدائق ولا يمتنعهم أصحاب الحدائق من ذلك، وبالقرب من الشيخ إبراهيم الشيخ مظلوم، وعلى الطريق العام حديقة فيها نكية صغيرة بها قبر صغير دفن فيه الشيخ مظلوم، ويقام له مولد كذلك فى منتصف شهر رجب، وبالقرب من جامع المتبولى الشيخ مسلمى، وبالقرب من حارة البركة الشيخ أبو الطيب، وبجواره الشيخ على الحداد، وفى حارة سيد أبو الفتح الشيخ أبو يوسف، وجواره سيدى سعيد، وفى قرب القنطرة الشيخ أبو النصر، وعلى مقربة من المرقب السبع بنات وضريح الأربعين وفى السوق فى مسجد العتبانى، وفى حارة المرقب الشيخ سلطان وإلى جواره سيدى على لوفيه وفى جوار المنشية قبر الشيخ أبو قريه وبالقرب منه الشيخ حمام وعلى مقربة من خان الشيخ رضوان الشيخ عبد الغنى وبالقرب منه الشيخ شرباصى، وبالقرب منه الشيخ مفتاح وهو مدفون فى ضريح عظيم يقام له مولد عظيم كل عام، وبالقرب منه الشيخ خطاب وبالقرب منه قبر الشيخ زندان وبالقرب منه قبر الشيخ شربازى، وبالقرب منه قبر الشيخ محمد العراقى وقبالة دمياط على شاطئ النيل سيدى الشيخ شديد، وبالقرب منه سيدى عثمان الصياد - رحمة الله عليهم أجمعين - نفعنا الله ببركاتهم، وثمة قبور صغيرة وكبيرة لغيرهم ذلك أن أهل دمياط محبون للأولياء ولا وجود فى رشيد لضرائح مثل ضرائحهم لأن هذه المدينة مدينة قديمة، أما رشيد فأنشأت حديثاً، وقد غرق أهل رشيد القديمة فى كوم أفرح والله أحمد أنى زرت ضرائح مائة ولى من أولياء الله فى دمياط وقرأت لكل ولى سورة يس وسورة الفاتحة واستمددت من أرواحهم العون لى، ولكنى ذكرت هؤلاء الأقطاب فقط حتى لا يطول بى الكلام، أما إذا شئت أن أعدد مناقب كل منهم لاستوجب ذلك منى مجلداً ضخماً.

ثم أرسل لنا الباشا فرقة من من يحملون البنادق وعددهم خمسون، ومضينا مع عشرين ملاحاً نحمل طعامنا وشرابنا من دمياط، ووصلنا إلى حدائق الجانب الشرقى، وتجهولنا بها فوق سهوات جيانا نصف ساعة، ومضينا ثم انطلقنا إلى بحيرة تينة.

أوصاف قلعة تينة

مر بنا أن الشيخ شطا فتح قلعة تينة واستشهد فيها، إنها قرية مربعة الشكل في كاشفة حاكم العريش. ومُحيطُها خمسمائة خطوة. ولها باب تجاه القبلة، وبها أربعون بيت صغير، وجامع للسلطان سليم، وثلاثون مدفعاً ومخزن للذخيرة، ورئيسها من المتفرقة، كما أن بها مائة جندي، وليس لها حدائق على شاطئ البحر بل أرض رملية، ولا أمان فيها من اللصوص، اللهم عافنا، وقَلِّ الماء والخبز اللذان كنا نحتاج إليهما للمضى إلى دمياط وبحيرة المنزلة بحيرة كبيرة يصل طرفها القبلي إلى العريش، وطرفها الغربي بدمياط والتزامها في العام عشرة أحمال من الأقجة، وبها أسماك جميلة الألوان. وفي هذه الليلة نزلنا ضيوفاً على رئيس القلعة ورأينا جماعة من الناس نحتل أجسامهم يقتاتون بسمك بلا خبز، ودفعنا عشرة قروش لمشاهدة القلعة ومضيئنا إلى ضريح الشيخ شطا، وركبنا السفينة ووصلنا إلى نهاية البحيرة بعد ساعة، وأرسلنا من قبلنا واحداً إلى دمياط فأحضر الخيل لنا فشهدنا على الجانبين الحدائق المزهرة، ودخلنا دمياط، وأرسلنا إلى بيوتنا في استانبول كثيراً من الأرز والعدس والبقول والحمص، وودعنا خليل شورباجي زاده ومحمد جلي وأمثالهم. ونلنا من الباشا ثلاثمائة قرش وعشرين ثوباً منقوشاً من ثياب دمياط ومائة منشفة، وحملنا طعامنا وأسلحتنا في سفينة وتوكلنا على الله ومضيئنا إلى الكنانة.

* * *